الفصل الأول

خرافة الأصل العرقى الواحد لليهود

العبرانيون الذين جالوا فى البلاد ، ليسوا كلهم أبناء خلص من نسل يعقوب ، فقد خالطوا قبائل كثيرة وأعراقًا شتى متباينة من شمال الجزيرة العربية ، وبادية الشام ، وفلسطين ومصر ، كما اختلط بهم جموع كثيرة من قبائل رعوية كانت منتشرة فى الهلال الخصيب ، وفى بادية سيناء ، كل أولئك وهؤلاء دخلوا فى العبرانيين من أبناء يعقوب، وتصاهروا معهم ، وامتزجوا بهم، واختلطت أعراقهم بأعراقهم ودمائهم وذابت فيهم .

الفصل الأول

خرافة الأصل العرقى الواحد لليهود

هل اليهود ينتمون إلى عرق واحد ، يكون لهم ذريعة إلى ادعاء قومى ؟!

يزعم اليهود أنهم جميعًا نسلوا من يعقوب عليه السلام = إسرائيل ، وهذا الزعم لم يتحقق لليهود على مدى التاريخ ، مع العلم بأن إطلاق مسمى اليهود عليهم تأخر بقرون طويلة قد تصل إلى خمسة عشر قرنًا عن زمن يعقوب عليه السلام ؛ ذلك لأن هذا العنصر كان عنصرًا عبوريًا كثير الترحال من أرض إلى أرض ، ولا يكاد يستقر فى أرض واحدة ، وكان هذا دأبه من قبل الميلاد بنحو من ألفى سنة .

ويحلو للصهاينة ـ وهم يزعمون أنهم نسلوا من العنصر العبرى ـ أن يطلقوا على الأرض الفلسطينية السليبة : الدولة العبرية . وهذا يدعو إلى طرح السؤال التالى : من هم العبرانيون ؟ إن من يطلق عليهم عبرانيون كانوا فى الأصل مجموعات من أشتات من أجناس وأعراق من بدو رحل ، كانوا دائمى الترحال والتنقل ، دون أن يكون لهم وطن ، فقد خرج قوم إبراهيم عليه السلام من الجزيرة العربية ، واستوطنوا مدينة أور ، وهى أرض «كلدان » لأن فقر الجزيرة العربية طاردهم إلى أطراف الهلال الخصيب ، وخرج إبراهيم عليه السلام حوالى سنة ٢١٠٠ ق.م من أور إلى حوران ، إلى أرض كنعان = فلسطين عابرًا نهر الفرات أو نهر الأردن ، وكان من نسل إبراهيم إسحاق ، ومنه نسل يعقوب = إسرائيل .

والقرآن الكريم يصف رحلة أبناء يعقوب فى مصر ، الذين كانوا قبل رحيلهم إلى مصر دخلاء على الكنعانيين فى أرضهم ، وكان الكنعانيون أول من سكن أرض فلسطين فى سنة ٤٠٠٠ ق.م نازحين من الجزيرة العربية ، واستقر اليهود من أبناء يعقوب فى مصر أكثر من قرنين قبل إخراجهم منها ، فأبناء يعقوب أنفسهم لم يستقروا فى أرض كنعان التى لم تكن وطنًا أصليًا لهم،بل كانت وطنًا للكنعانيين والفلسطينيين ، بل عبروا منها إلى مصر طلبًا للميرة = (الطعام) وكان أخوهم

يوسف عليه السلام قد سبقهم إليها، وكان عزيز مصر « ملك الهكسوس » الذى لم يكن فرعونًا مصريًا وطنيًا ، بل محتلاً يحكم البلاد ، قد استوزر يوسف فى قصة مشهورة ، ثم استكثر اليهود فى مصر ، ينعمون بالحياة فى خدمة الهكسوس ، إلى أن حرر أحمس فرعون مصر البلاد من الهكسوس ، وبعد حكم أحمس أراد من جاؤوا بعده إخراج اليهود المتعاونين مع الهكسوس من مصر ، وكانت معاناتهم فى عهد رمسيس الثانى إلى أن حان وقت إخراجهم على يد منفتاح بن رمسيس الثانى على الأرجح ، فقادهم موسى عليه السلام فى سيناء ولكنه مات فى سيناء ، فقادهم يوشع بن نون ، ودخل بهم أرض كنعان (١) .

ولأنهم كانوا قومًا رحل، فقد اكتسبوا اسم العبوريين ، عبروا الأنهار والفيافى والقفار « والعبرى » هو أقدم تسميات هذا العنصر ، ويدل لفظ « عبرانى » على نفس المعنى وجمعه عبرانيون .

وهناك أقوال متباينة حول مدلول كلمتى : « عبرى وعبرانى » فمن قائل إنها صفة تدل على النسب ، أى الانتماء إلى جماعة قومية بعينها ، ومن قائل : إنها مرادف لكلمة « عبيرو » = « حابيرو » و«خابيرو» التى وردت فى المدونات المصرية الفرعونية بمعنى : المرافقة ، أو المزاولة فى الترحال ، وقد وردت فى المدونات الأكدية بهذا المعنى نفسه ، ومن قائل إنها مشتقة من العبور ، عبور نهر الفرات بالتعيين، وجاء فى ذكر عبور يعقوب عليه السلام لنهر الفرات فرارًا من أصهاره ، فهرب، هو وكل ما كان له ، وقام وعبر النهر ، وجعل وجهه نحو جبل جلعاد . (تكوين ٣١/ ٢١) ومن قائل : إن لفظ « عبرى » من النسبة إلى « عابر » حفيد سام بن نوح (تكوين ١٠/ ٢٤، ٢٥) وتكوين ١١/ ١٥، ١٦ وهذا القول يؤكد أحد الأقوال السابقة فى دلالتها على جماعة إثنية بعينها .

---

(١) رأى أكثر المؤرخين أن مكوث اليهود من أبناء يعقوب بمصر يزيد على مائتى سنة ، راجع المفصل فى تاريخ العرب واليهود لأحمد سوسة ، ص ٤٧٨، ٤٧٩ ، ورأى ابن حزم الأندلسى فى الفصل ١/ ١٢٦ أنهم مكثوا بمصر ٢١٧ سنة، ورأى د. أحمد بدوى أستاذ التاريخ الفرعونى أن خروجهم كان فى عهد منفتاح الذى حكم ما بين سنتى ١٢٢٣م، ١٢١١ ق.م ـ كتاب : موكب الشمس ٢/ ٩١٢ ، القاهرة فى سنة ١٩٥٠م .

وأول من لقب بالعبرى إبراهيم عليه السلام = إبرام العبرانى وكان ساكنًا عند بالوطات قَمْر الأمورى (تكوين ١٣/٢٤) فى سياق لا يدل على أن الإشارة إشارة إثنية ، وإنما بمعنى « الغريب » الذى ليست له حقوق ، وهى أيضًا إشارة توراتية : «العبرى غريب فى منزلة الخادم » فقد أشارت التوراة إلى شراء « عبد عبرانى » «إذا اشتريت عبدًا عبرانيًا فست سنين يخدم » (خروج ٢/٢١) .

وهناك رأى يرى أن المصريين هم الذين أطلقوا عليهم صفة الغرباء ، وكانوا يصفون يوسف بأنه « غلام عبرانى » تكوين ١٧/٣٩) ثم تحولت الصفة إلى مصطلح يدل على جماعة عرقية ، وهى إشارة ذات دلالة تخلط بين العرقى والطبقى » (١) .

وعبور هذه القبائل من أبناء يعقوب لم يتوقف ، مما جعلهم يتعرضون للاختلاط العرقى مع أصحاب الأراضى التى يعبرون إليها ، أو من خلالها ، وأيا ما كان أصل كلمة « العبرانى » أو دلالتها فقد استعملها العبرانيون لقبًا ارتضوه لأنفسهم ، « وضرب شاول بالبوق فى جميع الأرض قائلاً : ليسمع العبرانيون » (صموئيل الأول ٣/١٣) والنساء العبرانيات لسن كالمصريات » (خروج ١٩/١) .

وأغلب استعمال التوراة لكلمة عبرانيين ، يكون إشارة إلى الغرباء منهم الذين يقيمون فى مصر ، ولكن منذ سبى الأسباط العشرة إلى « نينوى » فى عهد الملك الآشورى سرجون الثانى سنة ٧٢١ ق.م أطلقوا على أنفسهم شعب يهوذا ، نسبة إلى السبط الأظهر (٢) .

ولما زاد اختلاط العبرانيين بغيرهم من الشعوب الأخرى ، كان لفظ العبرانيين يطلق على الذين حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم القديمة منهم ، أما الذين دخلوا فى اليهودية من غير العبرانيين ، « فلم يحسبوا إلا يهودا ، وهؤلاء لا يحق لهم المشاركة فى نعم الشعب الخاصة » (٣) .

---

(١) راجع : د. عبد الوهاب المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، نموذج تفسيرى جديد (٢/٢٠٥، ٢٠٦) دار الشروق ، الطبعة الأولى ، القاهرة فى سنة ١٩٩٩م.

(٢) محمد بيومى مهران : بنو إسرائيل منذ عصر يعقوب حتى عصر موسى ١/٣٤ دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٩م .

(٣) د. مراد كامل : الكتب التاريخية فى العهد القديم ، ص ١٤، ١٥ ، القاهرة سنة ١٩٦٨م.

إذن فغلبة التسمية بـ « يهود » و« يهودية » تأخرت عن « عبرانى » و«عبرانية» و« عبرانيين » قرونًا طويلة .

« أما يهود ، فتسمية تنسب إلى أحد أبناء يعقوب = إسرائيل الذى منه الاثنا عشر سبطًا = يهوذا، وأبناؤه هم الذين أصبحوا كما قال د. جمال حمدان: يمثلون البقية الباقية من بنى إسرائيل بعد الأسر البابلى ، وهم الذين لم يعرفوا فى التاريخ باسم يهود قبل الأسر البابلى ولهذا يفضل الصهاينة العلمانيون أن يستخدموا كلمة « عبرى » أو « عبرانى » على استخدام كلمة « يسرائيلى » أو كلمة « يهودى » باعتبار أن الكلمة تشير إلى العبرانيين قبل أن يكونوا يهودا ، وهم بذلك يقدمون الجانب العرقى ، على الجانب الدينى فيما يسمى « القومية اليهودية » .

وينقل د. المسيرى عن د. حسن ظاظا نصًا يبين الفرق الدقيق بين مصطلحى «عبرانى ويهودى » ، يقول د. حسن ظاظا : بعد العودة من بابل فى القرن الخامس ق.م اقتصر استخدام مصطلح « عبرانيين » على الإشارة إلى الرعيل الأول حتى عصر التهجير البابلى ، واستخدمت كلمة « يهود » للإشارة إلى الأجيال التى أتت بعد ذلك ، التى لم تعد تستخدم العبرية ، وإنما تتحدث اللغة الآرامية ، وتكتب بها » (١) .

ولما وجد العبرانيون كانوا يتكلمون بلغة كنعان ، ثم ذابت هذه اللغة فى اللغة الآرامية التى غلبت على جميع القبائل التى كانت تستوطن أرض سوريا وفلسطين عندئذ أصبحت كلمة « عبرى » تشمل كل الآراميين ، وكانوا جميعًا بدوًا رحلاً رعويين نزحوا من الجزيرة العربية ، من قبل وجود العبرانيين .

العبرانيون إذن هم قبائل نزحت من شبه الجزيرة العربية ، تبدت وترحلت كغيرها من القبائل التى تنقلت فى الهلال الخصيب ، والعراق ومصر ، قبل أن تصل إلى أرض كنعان = فلسطين ، فى بداية الألف الثانى ق.م ، ولم تعرف هذه القبائل شيئًا عن الحضارة قبل اتصالها بالثقافة الكنعانية .

---

(١) د. المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٢/٢٠٦.

ويجزم الباحثون على أن العبرانيين لم يكونوا ينتمون لأرض معينة ، إنما كانوا قومًا رحلاً دأبوا على الترحال ، ولقد نقل هؤلاء الباحثون هذه الحقيقة عن أثر الرسالة مكتوبة مرسلة من بابل إلى « إخناتون » فرعون مصر تقول : « إن الهابيرو عبروا مرارًا إلى ما بين النهرين وفلسطين » (١) .

ولقد استوطن الفلسطينيون أرض كنعان ـ التى عرفت فيما بعد باسمهم ، قبل العبرانيين ، وكانت أغلبية الفلسطينين ، يسكنون سواحل البحر من جنوب فلسطين إلى شمالها ، وعاش معهم الفينيقيون ، ويعود وجود الفلسطينيين فى هذه الأرض إلى الألف الثالث ق.م ، وقد اكتسبت فلسطين طابعها السامى فى نهاية القرن الثالث ق.م ،أما بداية التسلل العبرانى لأرض كنعان فيعود إلى الفترة ما بين القرنين ١٦ ـ ١٥ ق.م فترة الآباء حين أخذ العبرانيون يتنقلون ما بين أرض كنعان = فلسطين ، والأردن ومصر طلبًا للطعام (٢) .

وفى القرن الثالث عشر ق.م خرج العبرانيون من مصر إلى فلسطين بقيادة موسى عليه السلام ؛ إذ أخرجهم فرعون مصر الذى رأى أنهم كانوا عملاء للهكسوس ، على أمن مصر ، التى آوتهم وأطعمتهم ، وأحسنت إليهم . وكان الفلسطينيون مستقرين فى أرضهم بفلسطين .

وقد أخذ الوجود العبرانى ـ بعد دخول أرض كنعان فى أوائل القرن الثانى عشر ق.م شكل جيوب استيطانية وحسب، فى الوقت الذى كان فيه الوجود الحضارى والقومى لكل من الكنعانيين والفلسطينيين مستقرًا ، وظل هذا الوجود مستمرًا لكل الشعوب السامية فى المنطقة من : مؤابيين ، وأنباط ، وعمونيين وفلسطينيين ـ بعد أن استوعبتهم الحضارة السامية وذابوا فيها ، كل هؤلاء وأولئك جميعًا عاشوا جنبًا إلى جنب ، واستمر وجودهم بعد الغزو المصرى والآشورى والبابلى والفارسى ، واحتفظت القدس (مدينة اليبوسيين الكنعانيين) باستقلالها ، ولم تفقد هذا الاستقلال إلا عندما غزاها داود ، وضمها إلى مملكته فى الفترة القصيرة التى حكم

---

(١) ارجع إلى : جواد رفعت أتلخان : بنو إسرائيل ، ص ١٢، ١٣، ٤٣، ٤٤ ترجمة يوسف ولى شاه ، الرياض سنة ١٤٠٤هـ .

(٢) د. المسيرى : الموسوعة ٤/ ١١٥ .

فيها الدولة العبرانية كل أرض كنعان فى الفترة من ١٠٠٤ ـ ٩٣٥ ق.م ، قبل أن تنقسم إلى دولتين ـ بعد موت سليمان عليه السلام لم يشغلا كل الأرض المعروفة باسم فلسطين فى العصر الحاضر » (١) ، وهذا يعنى أن اليهود لم يكونوا شعبًا موحدًا فى وطن ، له حكومة تحكمه ، إلا فى زمن داود وسليمان ـ عليهما السلام ، وكانوا منقسمين إلى اثنى عشر سبطًا ، ثم تسربوا كعادتهم بين الشعوب ، تسرب الطفيليات النباتية الضارة ، ومن ثم فمن الخطأ القول بأن العبرانيين هم أبناء يعقوب الذين لم يمتزجوا بأعراق أخرى ، والتوراة نفسها تؤكد اندماجهم فى الأعراق الأخرى ـ ففى سفر الخروج يأتى ذكر العبرانى على أنه ليس من أبناء يعقوب : « إذا اشتريت عبدًا عبرانيًا فست سنين يخدم ، وفى السابعة يخرج حرًا » (الخروج ٢١/٢) .

العبرانيون الذين جالوا فى البلاد ، ليسوا كلهم أبناء خلص من نسل يعقوب فقد خالطوا قبائل كثيرة ، وأعراقًا شتى متباينة من شمال جزيرة العرب وبادية الشام وفلسطين ، ومصر ، فقد خرج معهم من مصر عمال مصريون تمردوا على حكامهم ، وآمنوا برسالة موسى عليه السلام ، وخرجوا معه فى الخروج الكبير من مصر ، كما اختلط بهم جموع من قبائل رعوية كانت منتشرة فى بادية سيناء ، انضموا إلى النبى موسى فى التيه ، كل أولئك وهؤلاء دخلوا فى العبرانيين من أبناء يعقوب ، وتصاهروا معهم ، وامتزجوا بهم ، واختلطت أعراقهم بأعراقهم ودمائهم ، وذابت فيها .

هذا ما يؤكده جارودى فى كتاب ملف فلسطين مستندًا على قول اللاهوتى الفرنسى الأب ديثو : إن العبرانيين لم يشكلوا عنصرًا قائمًا بذاته منذ مجىء البدو الرحل إلى أرض كنعان ، إنما تكونوا من مجموعات ترجع إلى عناصر مختلفة ، كانوا جزءًا من الهجرات البدوية من الأموريين ، والآراميين ، ومن بين هؤلاء البدو الرحل استقر البعض فى أرض كنعان ، وواصل البعض سيرهم إلى مصر حوالى سنة ١٤٠٠ق.م حيث تبعوا الغزاة الهكسوس ، ولما طرد الفرعون أحمس الأول الهكسوس ، وجاء الفرعون الذى خلفه نظر إليهم على أنهم خونة ، كانوا

(١) راجع : د. المسيرى : الموسوعة ٤/ ١١٥، ١١٦ .

يقومون بأعمال التجسس لحساب الهكسوس ضد مصالح مصر ، حتى كان الخروج بقيادة موسى عليه السلام ، إلى أرض كنعان ، ولكن موسى مات قبل دخولهم فيها ، فدخلوها بقيادة يشوع ، وحتى ذلك الوقت كانوا لا يزالون ضمن طائفة اجتماعية هامشية ، تكونت من : عبرانيين ، وبعض معارضى فرعون ، وبعض قبائل رعوية من شمال الجزيرة والعراق ، وكل هذا يؤكد أن أصول ما عرفوا بـ «العبرانيين» إلى ما قبل دخلوهم أرض كنعان لم يكونوا جنسًا عرقيًا نقيًا خالصًا ؛ لأن المنطقة التى كانت حقلاً لتحركاتهم ، وهى المنطقة الواقعة فى قلب الهلال الخصيب الذى يمتد من النيل إلى الفرات ، كانت أرض عبور دائم لمختلف شعوب المنطقة ، ومن ثم اختلطت فيها الدماء والأعراق ، فقد اندمجوا مع قبائل : سيناء المصرية ، ومدين وشمال غربى الجزيرة وتصاهروا معهم » (١) .

ولكن يجب التنبيه إلى أن العبرانيين بتشكيلاتهم العرقية المختلطة التى غلبت عليها الهمجية لما دخلوا أرض كنعان بقيادة يشوع ، وجدوا بها الكنعانيين يعيشون فى وئام مع جيرانهم الفلسطينيين ، فى حسن جوار لأنهم جميعًا كانوا أهل حضارة فى مدن متمدنة ، ويعرفون الكتابة ، ويتقنون صناعة الحديد .

وكانت كلمة كنعان تطلق على جميع البلاد دون أى مدلول عرقى ، وكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس ، وجمعوا بينه وبين القصدير لإنتاج البرونز كما استخدموا الذهب والفضة فى تطعيم العاج ، وبرعوا فى صناعة الأصباغ خاصة القرمز والأرجوان ، الذى اشتق منه اسم كنعان ، وهم الذين اخترعوا السفن ، وعلى يديهم ازدهرت التجارة البحرية ، كما أنهم اشتغلوا بالزراعة فزرعوا الكروم والبن والقمح والزيتون ، وبرعوا فى فن البناء ، وإنشاء القلاع والحصون ، وأسسوا المدن ، وقاموا بأعمال هندسية مهمة لإيصال المياه إليها وأسسوا بها معابدهم الدينية ، وبرعوا فى صناعة الحلى والمشغولات الذهبية .

وكان الكنعانيون أول من اخترع الكتابة ، وكان لهم نبوغ فى الأدب ، وفى

---

(١) راجع : جارودى : فلسطين أرض الرسالات السماوية ص ٥٧، ٧٥ ، ترجمة د. عبد الصبور شاهين ، دار التراث ، القاهرة ١٩٨٦م .

الشعر بصفة خاصة ، وأهم أعمالهم الشعرية ملحمة الإله بعل والإلهة عنت وهى ملحمة تمجد الخصوبة فى الأرض والوفرة فى الزراعة .

ولقد قبس العبرانيون من الحضارة الكنعانية ، واتبعوا كثيراً من عباداتهم وعاداتهم ، كما تعلموا منهم فنون الزراعة والعزف والتراتيل ، وكانت مزامير داود كنعانية الأصل ، كما تأثر الشعر العبرى بالشعر الكنعانى ، وحتى الهيكل كان مصمماً على مثال المعبد الكنعانى ، وبصفة عامة كان الكنعانيون هم الشعب الغالب والأقوى فى الأرض التى سميت باسمه أرض شعب كنعان ، صاحب الحضارة الأرقى ، والأكثر تفوقًا » (١) .

كانت أرض كنعان المتحضرة المتمدنة تستوعب كل من يهاجر إليها مرتحلاً من الجزيرة العربية سواء كان من الأموريين، أو الآراميين، أو العبرانيين ، أو الأنباط، وكل من يتنقلون داخل الهلال الخصيب ، كل هؤلاء كانت تستوعبهم الحضارة الكنعانية وتذيبهم فى بوتقتها ، فى كل موجة هجرة ، وعلى هذه الأرض عاش الشعب الفلسطينى ، الذى أعطى اسمه لأرض كنعان منذ خمسة آلاف سنة ، بدءاً من الهجرة السامية سنة ٣١٠٠ ق.م حتى الآن .

وعلى هذه الأرض قدموا أعظم عطاء للثقافة العالمية ، من اختراع الكتابة التى تقوم على علم الحروف الهجائية ، لا على الرسوم الهيروغليفية أو المسمارية ، اللتين كان علمهما يكاد يكون حكراً على الكهنة ، وصفوة المثقفين » (٢) ، فى أرض مصر ، وأرض الرافدين .

لقد كان للكنعانيين فضيلة اختراع الكتابة التى سمحت لهم بكتابة ما كانوا يرونه مقدسًا ومفيداً ، وما كان يتناول مشافهة من القصص المقدسة ، والملاحم والأساطير .

وفى بحث مهم للدكتور محمد فتحى الريس أكد أن الكنعانيين ، وأصلهم من قبائل عربية كانوا يسكنون بلاد الشام ، كانت لهم حضارة متقدمة ، ودور مهم فى

---

(١) راجع : د. المسيرى : الموسوعة ٤/١٠١ ـ ١٠٤ .

(٢) راجع : جارودى : فلسطين أرض الرسالات السماوية ص ٥٧، ٧٥ .

التاريخ البشرى ، إذ إن أصول حروف الكتابة التى تستخدمها أغلب شعوب العالم حاليًا خرجت من بلادهم ، ولما دخل العبرانيون ، ومن كان معهم من البشر من غير العبرانيين ، عاشوا فى صحراء جنوب فلسطين يرعون الأغنام ، دون أن يكون لهم شأن بالحضارة أو التمدن، والتوراة نفسها تؤكد أنهم كانوا رعاة غنم : « هكذا قال رب الجنود [لداود] : أنا أخذتك من المربض ، من وراء الغنم . . . » (صموئيل الثانى ٧/ ٧) .

وكان رعاة الأغنام العبرانيون يرفضون طريقة عيش الكنعانيين المتمدنة،وفهمهم للحياة ، وكانوا فى الوقت نفسه يسخطون عليهم ، ويكنون لهم حقدًا ، صورها كتبة التوراة لعنات نسبوها ـ كذبًا ـ لنوح عليه السلام على أحد أبنائه الذى نسل منه الكنعانيون » [1] .

لقد تكونت روح الحقد من اليهود على غيرهم ـ خاصة ممن يحسنون إليهم ، فمع أنهم تنقلوا بين شعوب سالمتهم فى : مصر والهلال الخصيب وفلسطين ، ومع أنهم كانوا يمتزجون بهذه الشعوب عن طريق الزواج ، إلا أن تكوينهم النفسى العنصرى الحاقد ، كان يسبب لهم النفى والخروج المتكرر من كل أرض كانوا يحلون بها ، وظلوا على ذلك حتى تجذر فيهم الإحساس بأنهم عنصر منبوذ ، ولما كان هذا يحدث المرة تلو المرة على مدى تاريخهم كله فقد أثر فى نظرتهم إزاء غيرهم ، وسيطرت عليهم روح حقودة كارهة ميالة لاستصناع الشر والعدوان.

ولعل هذا الإحساس بأنهم عنصر منبوذ ـ خاصة لدى كتبة التوراة فى الأسر البابلى ـ جعلهم يغيرون فى نصوص التوراة ويضيفون ما يوافق هواهم حتى صوروا أنبياءهم فى صورة وحشية همجية ، وهم ينتقمون من غير اليهود .

وقصص بابل ، وقصص التوراة كلتاهما دلت على أن الشعوب العربية التى قذفت بها الجزيرة العربية خارجها بحثًا عن حياة أرغد ـ إذ إن الجزيرة العربية تلد

---

(١) راجع بحث د. محمد فتحى الريس : من هم الساميون ؟ صيحفة الشعب فى ١٢/ ٢/ ١٩٩٩م، وجارودى: فلسطين أرض الرسالات السماوية ص ١١٥ ، وملف إسرائيل دراسة للصهيونية السياسية ص ٣٤ ـ ٣٦ ، دار الشروق ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

ولا تغذى كانت تمثل أمة واحدة ، تتكلم بلسان واحد ، عندما كانوا فى الأصل فى البادية الرعوية ، ولكن عندما بدأ تأسيس المدن وفلاحة الأرض أخذ الشقاق يدب فيهم ، وقد صوره كتبة التوراة فى سفر التكوين على النحو التالى : «وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة، وحدث فى ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنغار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض : هلم نصنع لِبنا ونشويه شيا. فكان لهم اللبِن مكان الحجر ، وكان لهم الحُمَر مكان الطين ، وقالوا : هلم نبنى لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه الأرض » (التكوين ١١/ ١ ـ ٤) .

وإلى هنا لم يكن يوجد أثر للنزعة الصهيونية فى الإصحاحات الإحدى عشر الأوَل من سفر التكوين (١) .

ولما دخلوا أرض كنعان ليساكنوا أهلها فيها ، ويصف (ول ديورانت) صاحب كتاب قصة الحضارة هذا الدخول ، بعد الخروج من مصر بقيادة يشوع التوراتى ، وهذا الوصف قبسه (ول ديورانت) من قراءته له كما ورد فى التوراة فيقول : « دخل العبرانيون [هو يقول اليهود ، ولم يكن قد صاروا يهودا بعد] بطريقة همجية إلى أرض كنعان ، واعتدوا بطريقة وحشية على السكان الأصليين ، ولم تكن طريقتهم هذه إلا مثلاً لانقضاض جموع جياع ، على جماعة مستقرين آمنين قتلوا رجالهم وسبوا ما بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهارًا ، وكان هذا القتل كما صورته التوراة فريضة الشريعة التى أمر بها الرب ، وزكاة الرب ، وأقام يشوع حكمه على قانون الطبيعة ، وهو أن أكثر الناس قتلاً لغيره ، هو الذى يبقى حيًا ، بل هو الأحق بالحياة ، وبهذه الطريقة استولى اليهود على الأرض الموعودة » (٢) .

وهذه الصورة التى نقلها (ديورانت) عن الدراسات التوراتية ، وفهمه لسفر يشوع كما ورد فى الكتاب المقدس ، التى تصور يشوع وقد أباد كل من وجدهم

---

(١) انظر : إسماعيل الفاروقى : أصول الصهيونية ، ص ١٨ .

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثانى ، ص ٣٣٦، ٣٣٧ ، ترجمة زكى نجيب محمود، ومحمد بدران ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م .

من البشر ، وكل ما وجده فى طريقه من غير البشر بالقتل والحرق ، ولم يترك إلا البغى (راحاب) التى أخفت جواسيس الاستطلاع العبرانيين الذين أرسلهم يشوع قبل دخول أرض كنعان .

ولكن القصة التى روتها التوراة ـ ليست كما فهم ديورانت ـ ففيها مبالغات الضعيف وتصوير ما يتمناه ، لا ما وقع له ، فكما تبين فإن عقدة كراهية الآخرين، وتمنى زوالهم متجذرة فى الشخصية العبرانية منذ البداية ، ومنها صورت التوراة ما يعتمل فى النفس اليهودية فى أثناء كتابة التوراة من أمانى ، ومن ثم فإن الصورة التى وردت بالتوراة ، ونقلها القدامى والمعاصرون ، لا تبين حقيقة هذا العنصر العبرانى التاريخية بقدر ما تؤكد رغبته فيما يحب أن تكون عليه سيرة التاريخ على هواهم .

الذى يقرأ سفر يشوع (١٦/ ١٠) وسفر القضاة (١/ ٢١ ـ ٣٥) حيث الزعم بإبادة الآلاف بجيش يشوع بتعقل يخرج من هذه القراءة بأشياء مهمة ـ فى مقدمتها كيف يتسنى لهؤلاء العبرانيين ، ومن لحق به من الذين خرجوا من مصر مهزومين مغلوبين ، ثم قضوا فى التيه أربعين سنة عانوا فيها من ألوان الجوع والمسغبة ، يتطلعون إلى دخول أرض كنعان ـ التى كانت قد أحرزت تقدمًا فى الزراعة ، وفى الصناعة ، ومنها الصناعات الحربية ، « ومركبات الحديد » (يشوع ١٧/ ١٨) . وفاضت بخيراتها ، وأصبح أهلها أكثر قوة ، وأشد منعة من العبرانيين كما جاء فى سفر يشوع (١٧/ ١٦ ـ ١٨) وسفر القضاة (١/ ٢١ ـ ٣٦) ـ عنوة ؟!

لقد تسلل العبرانيون بقيادة يشوع أرض كنعان بالحيلة ، ويشهد سفر يشوع نفسه على هذا بموقف يشوع من العاهرة راحاب ، وهو ما أشار إليه المسيرى فى موسوعته ، إذ لم يحرز العبرانيون نصرًا عسكريًا ، ولم يحتلوا سوى بعض المناطق الجبلية ، عن طريق التجسس ـ أما فى السهول فقد كان للكنعانيين جيش مدرع بالعربات الحربية ، استطاع به أن تظل الهيمنة للكنعانيين وهو ما أثبته سفر يشوع نفسه (١٧/ ١٦ ـ ١٨) « لا يكفينا الجبل ، ولجميع الكنعانيين الساكنين فى أرض الوادى مركبات حديد » [١] .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى : الموسوعة ٤/ ١٤٠ .

ولم يكن الغزو العبرانى بقيادة يشوع مشتملاً على كل أرض كنعان ، ولكنه كان تسللاً إلى عدة جيوب متفرقة على التلال، بل ظلوا لاجئين على قمم الجبال، لا غازين بالمعنى المتعارف عليه بالغزو، إنه تسلل يقوم على المكر واستخدام الحيلة، وعلى التزاوج من بعض الكنعانيين من ساكنى الجبال ، ومساكنتهم .

ولم يحدث أن سيطر العبرانيون فى تاريخهم كله على أرض كنعان ، أو أى أرض حلوا بها ، إلا فى زمن مملكة داود ، من دان شمالاً ، إلى بئر السبع فى الجنوب ، واتخذت من « يبوس » عاصمة لها باسم أورشليم (من سنة ١٠٠٤ ـ ٩٣٥ ق.م) وهى فترة قصيرة جدًا فى تاريخ المنطقة ، ثم ما لبثت أن انقسمت إلى دولتين ، ثم جاءت فترة قيام الإمبراطوريات : الآشورية ، والبابلية ، والفارسية ، واليونانية والرومانية ، فاستولت على منطقة دويلات الشام ، ومنها فلسطين ، وتعاقبت عليها ـ حتى جاء الفتح الإسلامى ، فدخلت فى دين الله .

والتوراة ـ منذ السبى البابلى فى القرن السادس ق.م بعد النبى موسى عليه السلام بسبعة قرون ، كانت تكتب ، وكان يضاف إليها ، وكان يفقد منها فى كل عصر حتى جُمعت أشتاتها المتبقية ، وأضاف إليها عزرا فى أثناء السبى البابلى ، فكانت ثمار زقوم نبتت من نفس حاقدة فى منفاها ، هى نفس عزرا كاتب التوراة ، والدليل على ذلك أن علم الآثار تولى تكذيب ادعاءات سفر يشوع ، فإن أريحا التى زعم السفر المذكور أنها أبيدت ، لم تكن موجودة عندما زعمت رواية التوراة أن يشوع دخلها عنوة ، وهدم أسوارها ، وأباد كل من فيها ، وكل ما فيها .

ولقد لاحظ الأثريون الذين نقبوا فى هذه المنطقة « أن أهم العقبات أمام إثبات تسلسل الأحداث فى دخول بنى إسرائيل تتمثل فى أنه لا شىء فى أى موقع يسمح لأحد بالقول بوجود دليل مادى على وصول شعب جديد ، ولهذا قرروا أن دخول العبرانيين فى أرض كنعان لا يعضده دليل مادى على وصول شعب جديد ، وإنما هم مجموعات من البدو الرحل الذين استعاروا لدى استقرارهم أدوات أصحاب الأرض، وأن الثقافة التى أخذوا بها استعاروها من الكنعانيين » [1] ، كما أنهم فى الوقت نفسه لم يقدروا على القضاء على أى من الكنعانيين أو الفلسطينيين .

---

(١) جمال حمدان : اليهود ص ٥٨ .

وإن هذه الأخلاط من الأعراق المتباينة ، عندما دخلت أرض كنعان مع يشوع فى القرن ١٣ ق.م ، لم تستطع أن تمنع الاختلاط العرقى بين الذين دخلوا مع يشوع من جهة ، والكنعانيين والفلسطينيين، وجماعات أخرى كانت الجزيرة العربية قد قذفت بها فى موجات متقطعة مثل : الأروميين ، والعمونيين ، والمؤابيين ، وبعض فلول الآراميين ، الذين استقروا فى المنطقة منذ القرن ١٤ ق.م .

ومع ميول العبرانيين العدوانية فى حروبهم مع الجماعات التى استقرت فى المنطقة لا سيما الكنعانيين والفلسطينيين ، فقد كانوا يمنون بالهزائم دائمًا ، وفى عادات الحروب أن يغتصب المنتصرون نساء المهزومين فيحدث خلط عرقى ، كما حدث لهم خلط فى مصر من زمن يوسف إلى زمن الخروج موسى ـ فاختلطوا بالمصريين والهكسوس ـ إما بالتزاوج أو بالاتصال الجنسى غير الشرعى ، إذ لم تكن حياة المصريين والهكسوس الذين كانوا من الوثنيين تضع قيودًا على ممارسة الجنس، فى هذه العصور .

وكان لهذا الخلط العرقى بين الأجناس المختلطة فى أرض مصر كنعان تأثير فى لغة العبرانيين على ما صوره العلامة اللغوى رمضان عبد التواب ـ يرحمه الله ـ قال: وأما الكنعانية الجنوبية ـ فقد خرجت من بطنها اللغة العبرية ـ وهذا يعنى أنهم أخذوا بلسان كنعان [1] ـ وأهم نص كتب بها العهد القديم ويشمل التوراة لأسفار موسى الخمسة ، وكتب الأنبياء ، والمكتوبات : كمزامير داود ، وأمثال سليمان وغيرها .

« وأقدم مصادر اللغة العبرية التى خرجت من بطن الكنعانية الشمالية : (الأوجارتية) قصيدة دبورة [الإصحاح الخامس من سفر القضاة] التى ترجع إلى سنة ١٠٠٠ ق.م.

وكان السبى البابلى ، وتخريب بيت المقدس على يد بختنصر فى سنة ٥٨٦ ق.م تجربة قاسية للغة العبرية ، ثم جاء القرن الرابع والقرون التى تلته لتحمل

---

(١) لم تعرف العبرية قبل وفاة موسى عليه السلام ، ولقد قبسها العبرانيون من الكنعانية ، بعد تسلل يشوع وجيشه فى أرض كنعان فى آخر القرن ٢٣ ق.م ، راجع د. فؤاد حسين على : التوراة الهيروغليفية ، ص ٥٧، ٥٨ ، دار الكتاب العربى ـ القاهرة د.ت .

إليها عوامل التحلل والفساد ، ولقد ساعد على ذلك انتشار الزواج المختلط من غير اليهوديات ، اللاتى يجهلن اللسان العبرى ـ وغلبت الآرامية على العبرية ، لدرجة أن الحاخامات اضطروا إلى ترجمة ما يحتاجون إليه من أدعية « العهد القديم » إلى الآرامية ، وقد دونت هذه الترجمة تحت مسمى « الترجوم » .

ومع أن العبرية ظلت لغة الدين والتدريس ، إلا أنها تأثرت تأثرًا شديدًا باللغة الآرامية ، مثل كتاب « إستير » وكتاب « الجامعة » .

وكان هذا التأثر ينمو يومًا بعد يوم بنمو الجدل القانونى والشعائرى بين مدارس الفقه اليهودى فى القرن الأول الميلادى، والمحفوظ فى « التلمود » البابلى والفلسطينى كتب بالعبرية غير أن جمهرة مفرداته مستعارة من اللغة الآرامية .

« وكان زوال ملك اليهود السياسى ، وتدمير بيت المقدس ، وحرق الهيكل على أيدى الرومان فى سنة ٧٠ م من أعظم الحوادث التى أثرت فى تراث اليهود الدينى واللغوى ، فقد أدى تشتتهم فى البلاد شرقًا وغربًا إلى تأثرهم بلغات البلاد التى حلوا فيها ، فتأثرت العبرية فى العصور الوسطى باللغة العربية كما تأثرت باللغات الأوربية ، خاصة الألمانية فى كثير من المفردات والأساليب فى العصر الحديث » [1] .

وهكذا يؤكد التاريخ البشرى للأجناس أن العرق اليهودى لم يقف على الدم العبرانى ، كما أن لغتهم تعرضت لأكثر ما تعرضت له غيرها من لغات العالم فى أساليبها ومفرداتها بعدد لغات الشعوب التى حل فيها اليهود على مدار التاريخ ، منذ بدايتهم حتى اليوم .

ولقد انتظم تاريخ اليهود فى مراحل ثلاث متميزة هى :

١ ـ عهد القضاة : (١١٨٠ ـ ١٠٢٠ ق.م) .

٢ ـ عهد الملوك : (١٠٣٠ ـ ٥٨٦ ق.م) .

٣ ـ عهد الانقسام ، فالتمزق ، فالانقسام ، فالزوال .

---

(١) لزيادة التفاصيل راجع د. رمضان عبد التواب : الدلالات اللفظية فى العربية الفصحى صفحات: ح ، و خ ، ود ، وص ، القاهرة ١٩٩٤ بدون ذكر لدار النشر .

أولاً : عهد القضاة :

بعد موت يشوع فى حدود سنة ١١٥٧ ق.م انقطعت القيادة الجماعية لليهود التى عرفوها فى أثناء قيادة موسى عليه السلام ويشوع ، ثم تفرق الأسباط وقهرهم الكنعانيون والفلسطينيون ، ولم يعد لهم كيان يجمعهم تحت لواء واحد ، إذ أصبحوا تجمعات صغيرة يرأسها قاض أصله كاهن ، وفى هذه الفترة ارتدوا عن الديانة التى أرسل بها موسى عليه السلام سبع مرات فعبدوا الأوثان مثل : البعل (بلعيم) وعشتاروت ، وملكوم ، والتراقيم ، وشيدوا لها المعابد ، وقدموا القرابين والنذور، لدرجة أنهم قدموا أبناءهم وبناتهم قرابين لها (١) .

ويعد سفر القضاة السجل التاريخى لهذه الحقبة ، إذ يسجل إخفاقات اليهود المتتالية بعد يشوع ، لأنهم لم يطيعوا قضاتهم الذين اختاروهم من بين الكهنة ؛ لأنهم رأوا أن طاعتهم لم تكن واجبة ، وبذلك انعدم وجود الحاكم الذى يلزمهم باحترام القانون ويطبق عليهم الأحكام ـ وكانت فترة حكم القضاة حوالى ١٦٠ مائة وستين سنة .

وتصف التوراة اليهود فى عهد القضاة بأنهم عبدوا الأصنام (بعل إله الكنعانيين) وزنوا ـ كما جاء فى سفر القضاة : « وأقام الرب قضاة فخلصوهم من ناهبيهم ، ولقضاتهم أيضًا لم يسمعوا ، بل زنوا ، وراء آلهة أخرى سجدوا لها ، حادوا سريعًا » . (قضاة ٢/١٦، ١٧) .

ومع أنهم ـ فى عهد القضاة ـ عرفوا الاستقرار لأول مرة فى المدن والقرى بعد أن تعلموا بناء البيوت من الكنعانيين وسكنوها، كما تعلموا منهم استخدام الأدوات الزراعية ، وتخزين الحبوب ، وبعض الصناعات الصغيرة الأخرى ، إلا أنهم ظلوا أبعد من جميع الأمم المحيطة بهم عن التحضر والتقدم .

ومع أن فكرة أهمية وجود ملك يحكمهم ظهرت فى آخر عهد القضاة ، غير أن تحضرهم ظل متدنيا ، وكذلك مستواهم الاقتصادى ، وكان ذلك يظهر بوضوح عند مقارنتهم بالكنعانيين أصحاب الإنشاءات المعمارية الفخمة فى القرن ١٢ ق.م

(١) د. محمد على البار : المدخل إلى التوراة ١/ ٧٢ .

فى ذات الوقت الذى لم تكن بيوتهم فيه سوى أكوام من الحجارة خصوصًا فى «بيت إيل » .

ولم يستطع العبرانيون القضاة فرض السيطرة على أرض كنعان ، بل ظل الوجود العبرانى ، متقطعًا جغرافيًا على شكل جيوب استيطانية محاطة بشعوب معادية مثل : الكنعانيين والفلسطينيين الذين كانوا يحاربونهم باستمرار ، ويلحقون بهم الهزائم تلو الأخرى حتى أخضعوهم لحكمهم ، واستولوا على تابوت العهد المقدس » (١) .

ويعلل د. جمال حمدان ـ رحمه الله ـ هذه الحروب بسبب رغبة العبرانيين فى أن يستقروا بأرض كنعان ، فكان عليهم أن يدخلوا فى حروب مستمرة مع الكنعانيين ، لكنهم مع ذلك « لم يسيطروا إلا على التلال والأراضى الفقيرة ، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين ، وكان تاريخهم فى تلك المرحلة تاريخًا دمويًا لا أخلاقيًا يدور حول الإغارة والسلب ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبًا على يد الكنعانيين ، وعلى الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة » (٢) .

ثانيًا : عصر الملوك :

قلد العبرانيون ـ خاصة فى الشمال ـ الكنعانيين فى أسلوب الحياة والتجارة ، بل قلدوهم أيضًا فى نظامهم السياسى جاء فى التوراة : « اجعل لنا ملكًا يقضى لنا كسائر الشعوب » (صموئيل الأول ٨/ ٥) .

ولقد طلب اليهود من آخر قضاتهم (صموئيل = شمويل) أن يعين لهم ملكًا، فعين لهم شاول ؛ لأنهم أرادوا التشبه بالكنعانيين ، والفلسطينيين جيرانهم الذين كان يحكمهم ملوك ، فتعين شاول (من سنة ١٠٢٠ ـ ١٠٠٤ق.م) وقال صموئيل: ها أنذا قد سمعت لصوتكم فى كل ما قلتم لى ، وملكت عليكم ملكًا» (صموئيل أول ١٢/ ١ ـ ٢، ١٣) .

وكان أعظم ملوكهم داود وسليمان بن داود ـ عليهما السلام .

---

(١) انظر : د. المسيرى : الموسوعة ٤/ ١٤٦ .

(٢) د. جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا بتقديم المسيرى ص ، ٦٦ .

وفى سنة ١٠٠٠ ق.م وجد داود قبائل إسرائيل الاثنتى عشرة ، وهزم اليبوسيين (الكنعانيين) والفلسطينيين ، ووسع مملكته من دان شمالاً إلى بير سبع جنوبًا واتخذ من يبوس ، عاصمة لها ، وسماها أورشليم ، وحقق بذلك أول انتصار للعبرانيين على الكنعانيين والفلسطينيين ـ وكان داود ثم ابنه سليمان نبيين أرسلا لكل من كان بهذه الأرض ، ومن ثم فإن هذا التوحد للأرض لم يكن للعبرانيين وحدهم ـ مع أن داود وسليمان منهم ـ بل لكل من بعث إليه داود وسليمان من أهل هذه الأرض = أرض كنعان .

ولكن بعد النبى سليمان بن داود الذى بنى الهيكل الذى عرف باسمه انشطرت مملكة داود وسليمان إلى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبًا (٩٣١ ـ ٥٨٦ ق.م) من أبناء سبطى يهوذا وبنيامين ، وضمت القبائل العشرة الباقية ، مملكة إسرائيل شمالاً ، ولكن من المهم أن يستبين أن حدود هاتين الدولتين معا ، لم تكن مساحتها تزيد عن مساحة رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن الحالية » (١) .

وفى عهد داود وسليمان ـ عليهما السلام ، بلغت دولتهما تقدمًا آخر ولكن على حد قول د. أحمد شلبى : « لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير سعة ملك داود وسليمان ، إلا إذا كان ذلك قياسًا على من سبقهما من ملوك العبرانيين ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إن ما قيل عنه أرض الميعاد دانت يومًا واحدًا فى أيدى العبرانيين » (٢) .

واستمر حكم داود عليه السلام ٣٣ ثلاثًا وثلاثين سنة فى أرضهم لم يرحل فيها الفلسطينيون عن أرضهم ، ولم يجردوا من أملاكهم ، بل أبقاهم داود النبى المرسل عليه السلام فى أرضهم وفى ذلك يؤكد جمال حمدان أن دولة داود لم تصل إلى الساحل » (٣) .

---

(١) جمال حمدان : اليهود ، ص ٦٨ ، وأيضًا مبحثه : ليس اليهود من بنى إسرائيل ـ مجلة الفكر المعاصر العدد ٢٤ فى فبراير سنة ١٩٦٧ ص ٢٩ .

(٢) د. أحمد شلبى : اليهودية ، ص ٨١ ، ٨٢ .

(٣) د. جمال حمدان : الفكر المعاصر ، السابق ، ص ٢٩ .

ثم حكم سليمان عليه السلام بعد أبيه على سنته ولكن بموت سليمان كانت نهاية حكم مملكة داود وسليمان التى أنشأها داود التى استمرت أقل من سبعين سنة ، وتبدد حكم سليمان الذى انتهى سنة ٩٣٥ ق.م أمل العبرانيين فى أن يكون لهم ملك فى فلسطين ، إذ بدأ الشقاق يدب فيما بينهم ، وانقسمت المملكة العبرانية إلى مملكتين متحاربتين أبدًا فيما بينهما ، أو ضد جيرانهما مما عجل بزوالهما معًا ، على مراحل ، ويرجع د. المسيرى أن سبب الضعف الذى دب فى مملكة داود وانقسامها إلى دولتين : المملكة الشمالية (يسرائيل إفرايم) والمملكة الجنوبية (يهودا) إلى أسباب مباشرة وغير مباشرة ، أما الأسباب غير المباشرة فهى :

١ ـ لم يكن الاتحاد الذى جمّعه داود وسليمان اتحادًا قوميًا فى صورة أمة وشعب وأرض وحضارة ، بل كان تجمعًا اتحاديًا لقبائل متفرقة يجمعها النسب إلى بيت يعقوب ، ورغبتها فى الخلاص من سيطرة الكنعانيين والفلسطينيين .

٢ ـ ظهور القوة الآشورية ، ثم البابلية ، ثم استعادة مصر لقوتها بعد فترة انشغال بالحروب الليبية ، واستعادة سيطرتها على حدودها الشرقية ومركزها فى فلسطين خاصة فى عهد شيشنق ، وبهذا اختفى الفراغ الذى سمح بظهور المملكة العبرية المتحدة ، ثم ما فتئت الدويلتان الصغيرتان (يسرائيل ويهوذا) أن خضعتا لتقلبات القوى الداخلية (كنعان) والخارجية (بلاد الرافدين ومصر) .

٣ ـ كانت المملكة الشمالية مندمجة فى بيئة زراعية متأثرة بالبيئة الكنعانية وكانت تعبد (الوهيم) بطقوس (بعل وعشتروت) أما فى الجنوب فكانت قبيلتا (يهودا وبنيامين) تعيشان حياة أقرب إلى الحياة البدوية ، ويعتمد أهلها على الرعى فى المرتفعات ، وكانت عبادتهم تتسم بالقبلية والتعصب .

وهكذا التباين فى البيئة الاجتماعية والعبادات فى كل من الدولتين جعلهما دائمًا على خلاف .

أما الأسباب المباشرة : فيأتى فى مقدمتها الرغبة فى انفصال دويلة الشمال عن سطوة الهيكل المقدس ، وممارسة حياة بعيدة عن السلطة الدينية الكهنوتية ، ونفورهم من الضرائب الباهظة التى فرضت عليهم فى زمن سليمان ، أما قبيلة

يهودا فقد تمسكت ببيت داود ، وفرض السيطرة الدينية على القبائل العبرانية كافة، واتسمت بالانغلاق مع استمرار عداوتها على المملكة الشمالية ، وكانت كلتا الدويلتين العبريتين يدخلان فى تحالفات مع الدول المجاورة فى صراعهما مع بعضهما البعض .

ومع أن فترة داود وسليمان تعد أكثر عهود العبرانيين استقرارًا إلا أن النظام الاقتصادى ظل معتمدًا على فرض ضرائب باهظة ، وعلى بعض المعاملات المالية الصغيرة ، وجزية الرؤوس ، كما كانت الصناعة بدائية متخلفة عما كانت عليه الدويلات المجاورة من الكنعانيين والفلسطينيين ، فضلاً عن التقدم الحضارى والمدنى المذهل فى مصر » (١) .

كذلك فإن حملة شيشنق الأول فرعون مصر ، أضعفت مملكة داود ، ولقد جاء ذكر ما فعلته فى التوراة فى سفر الملوك الأول قال : « وأخذ خزائن بيت الرب، وأخذ كل شيء ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان » .

وفى سنة ٧٢٤ ق.م قام الملك سرجون الثانى الآشورى الثانى بغزو مملكة إسرائيل ، وخرّب أرضهم ، وأسرهم فيما عرف بالأسر الآشورى ، وأحل مكانهم بعض أسراه الذين أسرهم من البلاد الأخرى ، وزالت مملكة إسرائيل من التاريخ وكاد شعبها يزول زوالاً تامًا بسبب التخريب والسبى والانصهار فى الآشوريين ، والاندماج معهم ، وهم الذين يشار إليهم بقبائل يسرائيل العشر المفقودة .

وفى سنة ٦٠٨ ق.م زحف فرعون مصر على مملكة يهودا فأخذها ثم احتل مملكة إسرائيل .

وفى القرن السادس ق.م فى سنة ٥٨٦ ق.م غزاهم نبوخذ نصر ملك بابل ودمر القدس ، وجميع مدنهم ، وهدم الهيكل ، واختفت سفينة العهد .

وإذا اعتبرت هذه المرحلة التى شهدت السبى الآشورى ، ثم السبى البابلى ، الذى كان الأخطر فى تاريخ اليهود ق.م . فقد كان يمثل الشتات الأول المتجه نحو الشرق ـ فمن بابل بالعراق تفرقوا إلى الشرق .

---

(١) راجع : د. المسيرى : الموسوعة ٤/ ١٧٥، ١٧٦ .

وكان الشتات الثانى فى الفترة من حكم الإسكندر، الذى استمر مع السلوقيين والبطالمة ، والبزنطيين ، وكان هذه المرة نحو الغرب .

أما الشتات الثالث : فكان فى العهد الرومانى والوسيط ، وكان إلى الغرب خاصة بعد ثورتهم على الرومان ـ الذين أبادوهم ، وحرموا عليهم دخول القدس، وطرد ما بقى منهم إلى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وبهذا الشتات الثالث فى سنة ٧٠ م انتهت علاقتهم بفلسطين إلى الأبد سياسيًا وسكانيًا .

ثم إن خلفاء هؤلاء الذين كانوا بالشرق تعرضوا لطوفان المغول الذى قضى على غالبيتهم مع كل سكان العراق ، ولكن ـ مع هذا ـ كان يهود العراق الفارون من التتار نواة الشتات شرقًا إلى فارس ، خاصة فى القرن ١٢ م ومن فارس تفرقوا فى أفغانستان وبخارى ، وسمرقند فى التركستان ، كذلك من فارس خرج بعضهم فاستوطنوا جبال القوقاز فى مستوطنات مبعثرة فى القرن ١٥ الميلادى ، ومن هذه المراكز انتشر يهود إلى المشرق الأقصى بالهند والصين .

وفى اليمن تحول بعض أهلها إلى اليهودية فى عصر بلقيس ملكة سبأ (مملكة سبأ) المعاصرة لمملكة سليمان ، ووصل نفوذ اليهود فيها درجة عظمى حتى حكمها ملك يهودى فى القرن السادس الميلادى (ذو نواس) ومن اليمن انتقلت اليهودية إلى الحبشة » (١) .

ويرجح أن يكون من هؤلاء من اتجهوا إلى الشمال العربى ـ فى غرب إفريقيا قبل ظهور الإسلام .

ولم يعرف أن الذين انتشروا فى الأرض منذ القرن السادس ق.م قد عادوا إلى فلسطين ، فلما استولى قورش ملك فارس على بابل فى ٥٣٨ ق.م أراد أن يعيد اليهود من الأسر البابلى إلى فلسطين ، لكن أغلبيتهم آثرت الإقامة فى بابل ، ولم يعد منهم إلا قليل ، لم يستطيعوا لقلتهم أن يكونوا كيانًا ، ومثلت عودتهم ، جماعة أقلية ضئيلة تابعة للحكم الفارسى ـ ثم إن هذه الأقلية العائدة من السبى لم تجد ترحيبًا من ساكنى الأرض ، من أسرى سرجون الذين وطّنهم فيها .

---

(١) راجع : جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا، تقديم المسيرى ، ص ٦٩، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

ويؤكد المؤرخون ـ وفى مقدمتهم توينبى Toynbee أن يهود الشتات كانوا يصدفون عن العودة إلى فلسطين ، إيثارًا للبقاء فى الدول التى حلوا بها ، خاصة من يهود السبى البابلى الذين لم يستجب منهم لنداء العودة زعيمهم زوربابل فى خلال الفترة من سنة ٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق.م ، كما لم يستجب لنداء العودة سوى عدد أقل فى سنة ٤٥٨ ق.م ، كما لم يستجب لنداء العودة سوى عدد أقل فى سنة ٤٥٨ ق.م بقيادة عزرا ، وفى سنة ٣٨٤ ق.م بقيادة نحميا ؛ لأنهم كانوا قد اندمجوا فى نمط الحياة الجديدة ، وتواءموا مع البيئة التى استقروا فيها ، بل إن اليهود الذين عادوا من السبى البابلى إلى فلسطين اجتذبتهم مدن العالم الهللينى ، فساروا فى ركاب الفاتحين الفرس فى الممالك الهيلانية التى استولت عليها الإمبراطورية الفارسية (١) .

وهذه الرؤية أكدها البستانى قبل توينبى فى دائرة المعارف البستانى مادة (بابل) فقال: إن الذين رجعوا من السبى البابلى قليلون جدًا، بالنسبة إلى عدد الذين فضلوا أن يظلوا فى أرض السبى ؛ لأنه لم يكن يوجد ما يغريهم بالعودة إلى بلاد كانت الحروب المستمرة تأكلها ، فضلاً عن أن الفرس كانوا يعاملونهم باللطف والرفق.

وأما الذين فضلوا البقاء، وهم غالبية يهود الأسر البابلى ـ بعد استيلاء الفرس على بابل سنة ٥٣٨ ق.م وسماحهم لليهود بالعودة ـ فقد ظلوا ببابل وقبضت القلة الباقية من اليهود تحت أسر السوريين السلوقيين فى سنة ٢٠٣ ق.م .

وفى سنة ١٦١ ق.م قام الكاهن (ماكبياس) بثورة ، ولكنها فشلت ، ولم يحقق شيئًا لليهود ، وقتل فى سنة ١٦٠ ق.م .

وفى سنة ١٣٥ ق.م قام بقايا اليهود بثورة فجوبهوا بمذبحة عرفت بمذبحة (هادريان) فأبادتهم إلا قليلاً ، وأذنت بانقراض جنسهم .

وفى زمن (تيتوس) قام اليهود بثورة على حكم الرومان ، وأثخن فيهم الرومان القتل ، وأحرقوا الهيكل بأكمله .

---

(١) فؤاد محمد شبل: مشكلة اليهودية عن دراسة لتوينبى ، ص ١٥ ، المكتبة الثقافية عدد ٢٤١ ، القاهرة ١٩٧٠م.

وقدر المؤرخ اليهودى (يوسفوس) عدد من هلك من اليهود سنة ٧٠ م على يد الرومان بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفًا ، وهو عدد مبالغ فيه جدًا ، ولكنه يدل على إعمال الإبادة فيهم على أيدى الرومان ، أما المؤرخ (ناسس) فقد قدرهم بستمائة ألف ، وتعد هذه المذابح أهم حروب الإبادة فى اليهود بالمنظورين اليهودى والمسيحى ، وبها كادت أن تكون نهاية اليهود على أيدى الرومان ، حتى كادت فلسطين تخلو منهم ، ولهذا السبب ألغيت مناصب الكهنة ، والسهندرين ، واتخذت حياة اليهود الصورة التى احتفظت بها فى الشتات إلى منتصف القرن العشرين ، وهى صورة دين بدون معبد مركزى ، وبدون كهنوت ينتظم أعماله الدينية ، وأصبحوا شعبًا لا وطن له [١] .

وقدر جمال حمدان عدد اليهود الذين بقوا بفلسطين بعد مذابح الرومان بأربعين ألفًا ، حرم الرومان عليهم دخول بيت المقدس ، ثم طاردوهم إلى كل أجزاء الإمبراطورية الرومانية » [٢] .

ومع أن بداية انتشار الجماعات اليهودية فى الأرض كان مع السبى الآشورى ، ثم السبى البابلى ، إلا أن هذا الانتشار ازداد ، مع ظهور الحضارة الهللينية / الرومانية خاصة بعد سنة ٧٠م وقتل اليهود وإبادتهم وتشريد من بقى من المذابح ، وهدم الهيكل على يد (تيتوس) القائد الرومانى ، وبذلك افتقد اليهود تماسكهم وتجانسهم وأصبحوا مجرد جماعات يهودية مشتتة ، ليست لهم دولة ، ولا سلطة دينية مركزية يهودية .

كان هذا الشتات الكبير الذى امتد إلى ألفى سنة ، اختلط فيها اليهود بغيرهم من أجناس الأمم الأخرى بالاندماج والتزاوج ، وبتحول أعداد كبيرة من أمم كانت على الوثنية إلى اليهودية كما حدث فى مملكة الخزر الذى ينتمى إليها أصول غالبية اليهود المعاصرين .

ويؤكد أرنولد توينبى أن اليهود الذين خرجوا من فلسطين فى كل فترات تاريخ

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ١١/٦ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م .

(٢) راجع د. جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا ، ص ٦٩ ـ ٧١ .

اليهود لا يمثلون سوى نسبة ضئيلة من مجموع اليهود المنتشرين فى الأرض فى الجماعات الأخرى .

لكن الاضطهاد الذى أخذ شكل الإبادة على أيدى الرومان ، دفع اليهود للعمل الجدى للحفاظ على عنصرهم ، فأتم الربيون صياغة شريعة التوراة ، وتقنين التعليق عليها (المشينا) وكتابة شرح لهذا التعليق (الجمارا) ومنهما يتألف التلمود ـ الذى يجعلونه فى قداسة التوراة ، وقد استوعبوا فيه كثيرًا من أساطير مصر وبابل وحكمتها الدينية (الوثنية) ، ومن ثقافات الشعوب التى تأثروا بها مثل الكنعانيين وتعاليم زرادشت الفارسية ، وكانت فكرة الوطن القومى قد بدأت فى الظهور مع الحفاظ على الذاتية اليهودية فى بابل ، فى دولة تضم جميع الأراضى التى كونت دولة داود » [1] . ولكن ظل ذلك حلمًا يراودهم على مدى ٢٥٠٠ سنة .

لقد تفرق اليهود منذ مذابح الرومان ـ فى الأرض ، ولم يعد منهم من أحد إلى بيت المقدس ، إلا عند الفتح الإسلامى لفلسطين .

ولم ير اليهود طمأنينة ، ورخاء عيش ، إلا فى ظل الإسلام ، فقد أصبح لهم فى بلاد المسلمين حياة هادئة يمارسون فيها شعائر دينهم وثقافتهم وتجارتهم، ويكفى شاهدًا على ذلك أن أعظم فلاسفتهم فى العصور الوسطى : سعديا بن يوسف عاش فى مصر آمنا (٨٩٢ ـ ٩٤٢م) وموسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤م) الذى بدأ حياته فى كنف المسلمين فى الأندلس،قبل أن يجىء إلى مصر وينعم بها، فكان مقدمًا عند الحكام ، وعند صفوة العلماء ، وكانت أعظم مؤلفاتهما باللغة العربية التى كانا ينتميان إليها ثقافيًا .

وفى ظل تسامح الإسلام ـ فى المجتمع الإسلامى ـ عاش اليهود ، وشاركوا فى التحولات التجارية الإيجابية فيه ، كما أنهم من الناحية الثقافية انصهروا فى المحيط الحضارى الإسلامى ، الذى ضمن لهم أمن حياتهم وعباداتهم فغلب عليهم

---

(١) فؤاد محمد شبل : تفنيد الدعوى الصهيونية الباطلة من خلال دراسة توينبى ، مجلة الفكر المعاصر ، ص ٢٩ ، العدد ٨ فى أكتوبر ١٩٦٥م .

التوحيد ، فى ذات الوقت الذى تغلغل فيه العنصر الحلولى، الكمونى فى يهود الغرب الذين عاشوا فى بلاد الحضارة الهللينية / الرومانية .

وفى سنة ١٠٦٩م وقعت فلسطين فى أيدى الصليبيين « فسيق من بقى منهم حيًا فى فلسطين ، إلى إحدى بيعهم وأحرقوا » (١) .

وكانت الحروب الصليبية أشد وبالاً على الجنس اليهودى ، فكان الصليبيون فى أوربا قبل القيام بأية حملة من حملاتهم إلى الشرق الإسلامى ، وقبل المضاء فى حملتهم كانوا يقيمون ما يشبه الطقوس الدينية المسيحية بذبح اليهود باعتبارهم قتلة المسيح وصالبيه .

وفى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين كان وجود الجماعات اليهودية المشتتة فى العالم الهللينى / الرومانى داخل هذه التشكيلات الحضارية الأوربية ، التى كانت تفتقد إلى التوحيد الحضارى والثقافى الذى ينعم به العالم الإسلامى ؛ إذ كان العالم الغربى ينقسم إلى بلدان ذات مراكز سياسية مستقلة ، كل جماعة لها سمات تغاير الجماعات الأخرى ، فكانت الجماعات اليهودية تتأثر بوجودها فى هذه المراكز المتباينة ، ولما كان النظام الإقطاعى الذى يعترف بأقنان الأرض مسيطراً على المجتمع الأوربى ، فقد أصبح وجود الجماعات اليهودية فى هذه المجتمعات يمثل : أقنان بلاط داخل النظام الإقطاعى ، يعملون فى الإدارة المالية للملوك والأمراء ، والنبلاء الذين كانوا يسمحون لهم بممارسة أعمال الربا والتجارة ، على أن يقاسموهم الأرباح » (٢) .

وخلاصة القول فى هذا الفصل : إن العبرانيين كانوا دخلاء على الأرض التى اغتصبوها من أرض كنعان ، كما يمكن التأكيد على أن فلسطين امتنعت عليهم ، كما أنهم كانوا يواجهون دائمًا مقاومة قوية فى الأماكن التى دخلوها من السكان الأصليين ، ولم يكن لهم غلبة إلا فى عصر داود وسليمان ـ عليهما السلام ، وهى فترة تقدر بسبعين عامًا ، أى أنها بالغة القصر بالقياس الزمنى للتاريخ .

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة ٧/ ١٤ ، ص ٤١ .

(٢) راجع د. المسيرى : الموسوعة ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣ .

أما من الناحية العرقية، فإنهم لم يكونوا عرقًا نقيًا، ولا شعبًا واحدًا، ولا أمة واحدة، ولم تكن لهم أرض، ولا وطن مستقل حتى فى زمن مملكتى داود وسليمان فقد شاركهما الأرض الكنعانيون ـ والفلسطينيون وغيرهم من الشعوب التى كانت تسكن أرض كنعان .

وفى العصور الوسطى كان أغلب يهود العالم قد انحدروا من قبائل أسيوية كانت تعيش حول بحر الخزر ، ثم اتجهت نحو أوربا الشرقية ، خاصة روسيا وبولندا ابتداء من القرن الثامن الميلادى ، ثم تفرقوا فرحل منهم إلى غرب أوربا أعدادٌ كبيرة على الوجه الذى فصله المؤرخون فى مراحل تاريخية متتابعة .

اليهود فى العصور الوسطى :

جمع الرومان من يهود الشتات وفرقوهم فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث الميلادى ، وكانت أكبر تجمعاتهم فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا ثم جذبتهم ضفاف طريق الرون ـ الراين ؛ لأنه كان طريق التجارة وشريانها فى الإمبراطورية الرومانية ، فكانت تجمعاتهم فى أوربا الوسطى والغربية فى الأغلب حول فرانكفورت التى كانت مركزًا مهمًا لنشاطهم التجارى ، ولما دخلت قبائل أسيوية كانت تعيش حول بحر الخزر اليهودية فى القرن الثامن الميلادى ، وكونوا أغلب يهود العالم ، بعد الإبادات التى أفنت اليهود الأوائل ، عدا ما تفرق من يهود الشتات فى العالم خاصة فى أراضى الإمبراطورية الرومانية .

اتجهت موجات من يهود الخزر الأسيوية نحو أوربا الشرقية خاصة روسيا وبولندا .

ولكن بعد أن تنصرت القوة السلافية الروسية الأرثوذكسية قامت بتشريد اليهود ، وتعرف حركة اضطهاد الجماعات اليهودية بـ « الشتات الخزرى » Kh azar Diasporo ، ويشير الشتات الخزرى إلى تشتت يهود الخزر بعد سقوط دولتهم وتفرقهم فى أماكن متفرقة خاصة بالمجر وبولندا ، فى القرن الثانى عشر الميلادى واستيطان يهود الخزر فيهما ، بحيث مثلوا أكبر تجمع ليهود العالم آنذاك ، مما يؤكد أن أصل يهود المعاصرين هم الذين أطلق عليهم الكاتب اليهودى

آرثر كستلر : القبيلة الثالثة عشرة ذات الأصل الأوربى التى ليست لهم أية علاقة بنيوية أو جنسية ، أو تاريخية بالأسباط الإثنى عشر العبرانيين » (١) .

ويعد من بقى من يهود الخزر فى روسيا وبولندا والمجر ، فضلاً عما كان بقى من مذابح البابليين والفرس والرومان ، فقد سارت مسيرتهم فى العصور الوسطى على الوجه التالى :

١ ـ استقرت جماعات منهم فى إيطاليا وألمانيا وإسبانيا وفرنسا ، وجماعات أقل عددًا فى بؤر أخرى فى بلاد أخرى فى أوربا ، بأعداد متفاوتة ، وقد اشتغلت جالياتهم فى هذه البلاد بالتجارة ، وقد فرضها عليهم الترحال الدائم ، وعدم تمكنهم من تملك ملكيات خاصة من الأراضى والعقار ، وما أشبه ، كما لم يكن لهم شأن كبير فى النشاط الثقافى للبلاد الأوربية التى حلوا بها .

٢ ـ استقرت جالية منهم فى آخر القرن السابع فى سنة ٦٩١م بانجلترا ولكنها لم تكن بالكثرة العددية مثل جالية إيطاليا وألمانيا وإسبانيا وفرنسا .

٣ ـ حدثت تحولات فى الشخصية اليهودية وتكوينها النفسى والعصبى ، وفى أخلاقها ، فقد عرفوا فى بداياتهم بالعنف والشراسة ، والميول العدوانية ، وحب الحرب والعدوان ، ولكن بعد هزائمهم المتكررة ، فى المذابح التى تعرضوا لها تحولت هذه الشراسة إلى التواء فى الشخصية، وإلى خنوع ناعم ، دون أن تتلاشى هذه الشراسة فهى مستعدة دائمًا للظهور متى تحين الفرصة ، والظروف المواتية .

وكان التكوين النفسى والعصبى للشخصية اليهودية أهم الأسباب التى سببت لهم المذابح المدبرة فى أوربا ، فى القرون الوسطى ، كما كانت سببًا فى مذابح البابليين والفرس والرومان قديمًا .

٤ ـ وفى إسبانيا أطلق على اليهود سيفارديم Sephardim ولكن الكنيسة الإسبانية وملوك إسبانيا ضيقوا عليهم ، وحرموا عليهم امتلاك الأراضى ، وكل الأعمال المالية والتجارية بين المسيحيين واليهود حتى نهاية القرن السابع ، ولم يهنأ

---

(١) جارودى : فلسطين أرض الرسالات الكبرى ، ص ٦٠٣ .

اليهود الإسبان بعيش إلا فى ظل العرب ، منذ الفتح الإسلامى لبلاد الأندلس ، فقد اندمجوا فى المجتمع الإسلامى ، وذابوا فيه وازدادوا ثقافة وتحضرًا ، وكان منهم أعظم فلاسفتهم فى كل العصور « موسى بن ميمون » .

٥ ـ نشأ عداء كبير لليهود فى أوربا ولد كراهية اليهود من قبل المسيحيين ، بسبب قدرة اليهود على احتواء المال وتملكه فى أية أرض يحلون بها ، واستنزاف أموال الشعوب من غير اليهود ، ذلك لأن الترحال الدائم فى الأراضى المملوكة لغيرهم حرمهم من أن يكون لهم أرض يزرعونها ، أو يقيمون مصانع ، ومن ثم برعوا فى أعمال التجارة والمراباة بصفة خاصة ، وهى الأعمال التى جلبت لهم كراهية الشعوب .

٦ ـ كانت هناك أسباب أخرى لكراهية الناس لهم ، تفوق الأسباب المالية ، وهى الأسباب الدينية ، فقد ولد المسيح عليه السلام فى أسرة يهودية ، ودعا بدعوة جديدة ، ولكن اليهود لم يتبعوه ، بل تآمروا عليه عليه السلام ، وحاولوا قتله وصلبه .

٧ ـ وهناك سبب اجتماعى بجانب السبب الاقتصادى ، والسبب الدينى ، فلم تكن الشريعة اليهودية التى عرفها الغرب المسيحى عن اليهود ، تبيح لليهود أن يأكلوا طعامًا مسته يد مسيحية ، أو يشربوا شرابًا عصرته يد مسيحية ، أو يستخدموا آنية لمستها يد مسيحية ، أو غير يهودية ، وكان اليهود يرون أن كل شىء مسيحى نجس .

٨ ـ كان اليهود فى أوربا فى القرون الوسطى يعيشون فى عزلة قضائية منعزلة من قضاء الدولة التى يعيشون فيها ، وكانت شؤونهم القانونية تخضع لمراسم الملوك مباشرة ، ولقد وسعت هذه العزلة القضائية بينهم ، وبين المسيحية ، وكانت سببًا فى تدبير المذابح لهم كما حدث فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر .

٩ ـ وفى القرن الثانى عشر قرر البابا (إنوسنت Innocent) الثالث الذى كانت سلطاته تعلو على سلطة ملوك أوربا ـ أن يكون لليهود شارة خاصة ، ووضع المبدأ البابوى الذى ينص على أن اليهود عن بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية ؛ لأنهم صلبوا المسيح .

١٠ ـ وفى القرن الثالث عشر تعرض اليهود لعدة مذابح فى ألمانيا فى سنى : ١٢٣٥، ١٢٤٣ ، ١٢٨٥ ، ١٢٩٨م ، وكان أول اضطهاد ليهود الراين بألمانيا متزامنًا مع الحروب الصليبية فى سنة ١٠٩٦م .

١١ ـ وفى سنة ١٢١٨ م نفذ هنرى الثالث ملك إنجلترا الأمر بوضع الشارة اليهودية ، أى بوجوب أن يضع كل يهودى على ملابسه شارة يعرف بها أنه يهودى، فكادت المذابح تمحوهم بسببها فى إنجلترا فى سنة ١٢٥٧م ، ١٢٦٧م.

ثم أمر إدوارد الأول ملك إنجلترا ، من بقى من اليهود ، وكان عددهم ١٦٠٠٠ ستة عشر ألفًا بمغادرة لندن فى سنة ١٢٩١م .

١٢ ـ وفى فرنسا أمر لويس التاسع بقتل أى يهودى يذكر الدين المسيحى بسوء، وكان هذا الملك متعصبًا للمسيحية ، وقام بأكبر حملة صليبية على بلاد المسلمين فى القرن الثالث عشر فى سنة ١٢٥٤م وتم نفى يهود فرنسا بعد مصادرة كل أملاكهم.

وفى سنة ١٣٠٦ طردهم فيليب الجميل ، وكان عددهم قد بلغ ١٠٠٠٠٠ مائة ألف يهودى ، ولم يسمح لهم بحمل شىء من ممتلكاتهم ، غير طعام يوم واحد ، ولم يترك لهم متاع ، إلا ما كان عليهم من ثياب .

وفى آخر القرن الرابع عشر ، طرد كل من بقى من يهود فرنسا فى سنة ١٣٩٤م.

١٣ ـ أما يهود ألمانيا وإسبانيا فى القرن الرابع عشر ، فقد اتجهوا نحو بولندا ووصلوا إلى كثرة عددية فى القرن السادس عشر .

وفى بولندا وجنوب روسيا تجمع اليهود الألمان ، مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر ، حتى صار عددهم أكثر من نصف يهود العالم فى بداية العصور الحديثة .

اليهود فى العصور الحديثة :

١ ـ فى حروب الاسترداد المسيحى للأندلس فى سنة ١٤٩٢م ، اضطهد الإسبان يهود الأندلس ، الذين كان عددهم ألف ألف نسمة ، خرجوا مع المسلمين

وتفرقوا فى بلاد الخلافة العثمانية ، عدا فلول منهم ذهبت إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وهولندا .

٢ ـ وفى سنة ١٤٩٩م كانت بدايات الثورة العلمانية فى أوربا .

ثم كانت توجهات موجات الترحال اليهودى نحو بولندا وجنوب روسيا ، حتى بلغوا قمة عددية فى القرن السادس عشر .

٣ ـ وفى سنة ١٦٤٩م أصبحت إنجلترا كومنولثًا تحت حكم كرومويل (من سنة ١٦٤٩م ـ ١٩٦٠م) وفى هذه السنة ١٦٤٩م بدأ ظهور الصهيونية ذات الديباجة المسيحية التى تستند إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية = عقيدة عودة المسيح المخلص فى آخر الزمان ، ليحكم العالم ، هو والقديسون ، لمدة ألف سنة يسود فيها العدل والسلام بحسب معتقدهم ، ولكن الخلاص بزعمهم لن يتحقق إلا باسترجاع اليهود لفلسطين .

وليلاحظ أنه لم يكن هناك فى هذه المرحلة تفكير صهيونى يستحق الذكر فى صفوف اليهود .

ولقد عمل كرومويل على عودة اليهود إلى إنجلترا ، ليفيد منهم باعتبارهم عنصرًا تجاريًا ، كما يمكنه استخدامهم جواسيس ، وبالفعل أعاد اليهود إلى إنجلترا فى عهد كرومويل ، ليقوموا بدور وظيفى فى خدمة الحكومة البريطانية .

٤ ـ وفى بداية القرن العشرين كان أغلب الجماعات اليهودية موجودة فى روسيا وبولندا ، والنمسا والمجر .

ثم بدأوا يغيرون من وجهتهم إلى العالم الجديد ، خاصة الولايات المتحدة ثم كندا ـ فالأرجنتين فالبرازيل .

٥ ـ ولأسباب اقتصادية وغير اقتصادية يستقر أضخم تجمع يهودى بالعالم فى الولايات المتحدة الآن ، ولقد شجعهم على الهجرة إليها ، فقر شرق أوربا ، وظهور ما عرف بسياسة معاداة السامية فى أوربا ، خاصة فى ألمانيا ، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين من جهة أخرى » [١] .

---

(١) انظر : ول ديورانت : قصة الحضارة ٧/ ١٤ ، ص ٤٨ ، ٧٩ ، ٩٤ ، ود. جمال حمدان: اليهود أنثروبولوجيا ، ص ٦٩ ، ٧٤ .

وفى كل هذه التحولات التاريخية لليهود بالعالم ، كانوا يختلطون بأعراق جديدة ، إما بالتحول الدينى كما حدث ليهود الخزر ، أو بالمخالطة والتزاوج والاندماج ، والاختلاط غير الشرعى ، كما حدث فى الحالات الأخرى .

وهذا يسقط ادعاء وحدة عرقية لليهود الغابرين أو المعاصرين، وأن ما يزعمون من نقاء عرقى ، لا يعدو أن يكون خرافة ، أو أسطورة من أساطيرهم المختلقة .

وفى الولايات المتحدة تستوطن أكبر جالية يهودية فى العالم ـ إذ بها ستة ملايين من اليهود الخلص والمندمجين ، ولا يزيد اليهود الخلص عن مليونين ، لأن أغلب اليهود فى الولايات المتحدة ، قد اندمجوا اندماجًا كاملاً فى المجتمع الأمريكى ، عن طريق الزواج المختلط ، إذ أبيح الزواج المدنى منذ القرن ١٩ ، وهو الذى جعل المجتمع الأمريكى يمتص اليهود ـ عن طريق هذا التزاوج ، وعلى هذا فإن سحنة اليهود ـ القوم ـ الذى يعيشون فى داخل الكيان الصهيونى هى أقرب للجنسيات التى جاؤوا منها ، والإشكنار منهم بصفة خاصة ، وهم أقرب إلى الأوربيين والأمريكيين ، وهذا يسقط زعمهم بنقاء العرق ، منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وحتى اليوم .

ويلخص د. جمال حمدان خرافة نقاء العرق اليهودى « لأن اليهود ليسوا من بنى إسرائيل بمعنى أن الصهيونيين الذين يحتلون فلسطين اليوم ليسوا من نسل يعقوب = إسرائيل : بنى التوراة ، أو من سلالته ، حقًا إن يهود العالم اليوم لا علاقة لهم البتة بتلك القبيلة المنقرضة ، من يعقوب ، إلا علاقة ادعاء موهوم ؛ لأن الذين فروا من مجازر الرومان وخرجوا من فلسطين بعد سقوط أورشليم ، لم يكن عددهم يتجاوز بضع عشرات من الآلاف ، وقد تشتت أغلبهم فى بلاد البحر المتوسط ابتداء من تركيا حتى إسبانيا ، ومن العراق حتى المغرب ، هذا الوسط الجديد الذى كانت أجزاء منه وثنية لقرون طويلة بعد ذلك ، وهؤلاء اختلطوا بالسكان وزاوجوهم وفى هذه الأثناء تحول كثير من الأجيال من الوثنيين إلى اليهودية ، فصاروا قطاعًا من جسم هذه البلاد ، وهؤلاء هم اليهود السفارديم الذين لا يمثلون اليوم إلا خمس مجموع يهود العالم .

أما الأغلبية الساحقة وهم الأربعة أخماس وهم : الأشكناز ، فهم يهود أشكناز متحولون (يهود الخزر) وأوربيون تحولوا عن طريق التبشير ، وهم الذين انتشروا بعد ذلك فى بولندا وروسيا وشرق أوربا والمجر ، ومن نسل هذه الملايين المتحولة أتت ملايين الإشكناز مباشرة لحمًا ودمًا، بولنديون، وروس، ونمساويون، وألمان ومجر ، وتشيك ، أو رومانيون وغيرهم ، أى إنهم لا علاقة لهم قطعيًا ببنى يعقوب = إسرائيل التوراة ، إنهم من حيث الموطن والسلالة ، والعرق والدم أوربيون ، ووثائق الدراسات فى علم الأجناس البشرية تثبت بالمقاييس الجسمية لليهود ، أنهم لا يختلفون بتاتًا عن السكان الأصليين الذين يعيشون بينهم » [1] .

ويمكن الإشارة إلى أن أعداد اليهود بالعالم فى العصور الحديثة لما له من دلالة على اندماجهم مع الشعوب الأخرى ، وانصهارهم فيها ، واختلاط دمائهم بدماء الأعراق الأخرى .

ففى سنة ١٧٠٠م بلغ عدد اليهود فى العالم مليونى يهودى ، وهذا يعنى أن عدد اليهود لم يزد فى خلال ألف سنة ويزيد ـ بسبب كراهية الشعوب لهم ، واضطهادهم ، والعمل الجماعى على إقامة المذابح لهم ، وإبادتهم .

وفى سنة ١٧٧٥م نقص عددهم إلى مليون ، وثلاثة أرباع المليون كانت غالبيتهم تعيش فى القارة الأوربية ـ وكان يعيش من بين هؤلاء مليون ونصف مليون فى بولندا وحدها .

وفى سنة ١٨١٥م بلغ عدد اليهود ٢٥٠٠٠٠٠ (مليونين ونصف المليون) ، ثم أخذ عددهم فى التصاعد إلى أن وصل ١٦٧٢٤٠٠٠ (ستة عشر مليونًا وسبعمائة ألف وأربع وعشرين ألفًا) عشية الحرب العالمية الثانية ، وهو أكبر عدد يصل إليه عدد اليهود عبر التاريخ البشرى الذى عايشوه ، وتفيد التقارير والوثائق، والإحصائيات أن معظم هذا العدد من نسل يهود بولندا وروسيا ، الذين نسل معظمهم من يهود الخزر .

---

(١) راجع : د. جمال حمدان : هيكل المجتمع الإسرائيلى ، مجلة الفكر المعاصر ، ص ٤٣ ـ ٥٢ العدد « ٦ » فى أغسطس ١٩٦٥م .

ولكن طبقًا لإحصاءات سنة ١٩٨٧م فى الكتاب الصهيونى السنوى Zionist Year Book 1987 فإن عدد سكان العالم من اليهود يقدر بحوالى ١٢,٩٣٤,٦٠٠ اثنتى عشر مليونًا وتسعمائة وأربعة وثلاثين ألفًا وستمائة يهودى، وهو يقل عن عددهم فى سنة ١٩٦٧م وهو (١٣,٨٣٧,٥٠٠) ثلاثة عشر مليونًا وثمانمائة وسبعة وثلاثون ألف وخمسمائة ، أى أن عددهم قد نقص حوالى مليونى نسمة فى عشرين عامًا ، دون إبادة ، وإنما من خلال تناقص ناتج عن ضعف الخصوبة فى اليهوديات ، والزواج المختلط والاندماج ، والانصهار ، خاصة بين اليهود العلمانيين ، فى المجتمعات الغربية ، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وكندا [١] .

(١) راجع : د. المسيرى : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٨ / ٧٨ والمسيرى أيضًا : هجرة اليهود السوفييت ص ٤٤ ـ كتاب الهلال .